ماهية الجماليات في عالم اللغة والفن

Aesthetics in language and art

خيرة بوداود *

محمد بن منوفي ♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/21	تاريخ القبول: 17 / 03 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

الملخص:

إن موضوع (**الجماليات**) هو موضوع أساسي في مجال الفنون الإنسانية عامة، كونه يمسك زمام العملية الإبداعية بدءا من مرحلة الإنتاج الفني وصولا إلى مرحلة التقويم الجمالي لها، و هذا ما يؤسس الجانب التواصلي في الأعمال الإبداعية المكونة من الفنان و الناقد و العمل الإبداعي مكمن الجماليات ، و لعل ما يزيد من روعة جماليات الأعمال الفنية هو كونها انعكاسا لجماليات الواقع المتخيل لدى الفنان الذي يحاول من خلالها تحسين الواقع المعيش و جعله مرتعا للجمال و المثاليات المفقودة، و لذلك يمكن اعتبار الأعمال الفنية الناجحة هي تلك الأعمال التي تحتوي سر خلودها ألا وهو رسم صورة الفردوس المفقود.

الكلمات المفتاحية: علم الجمال، علم اللغة، الأدب، الخطاب.

Abstract:

*The theme of (**Aesthetics**) is fundamental in the field of human arts in general , It holds the reins of the creative process from the artistic production stage to the aesthetic evaluation stage, What establishes the communicative aspect of crative works composed of Artist, Critic and artistic works including aesthetics .*

المؤلف المرسل: خيرة بوداود boudaoud90@yahoo.fr

***جامعة الجزائر2مخبر الدراسات الأدبية والنقدية التراثيةboudaoud90@yahoo.fr**

♣جامعة الجزائر 2 benmanoufimaha82@gmail.com

Perhaps, What adds the greatness of aesthetics to the artistic works is that it reflects the aesthetics of the artist s imagined reality, where he tries to improve the living reality and make it a breeding ground for th lost beauty and ideals, Therfore, The successful artistic works are those which contain the secret of their immortality, which is a painting of the image of the lost paradise .

***Key words**:Aesthetics, Linguistics, Literature,The speech.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

1. مقدمة:

بدأ الإدراك الجمالي بداية ساذجة عند الإنسان البدائي، الذي تجلَّت تعبيراته الفنية من خلال الرسومات و الأشكال التي كان ينحتها على صخور الكهوف، و أسقط عليها معتقداته الأسطورية في طقوس تكاد تحمل من الرغبة في التعبد والبحث عن الإله المعبود الشيء الكثير، عساه يشفي غليله من الحيرة التي كانت تنتابه حول بعض الظواهر الطبيعية أو الميتافيزيقية التي عجز عن تفسيرها وفق ما يرضي منطقه البسيط، و لعل تلك الرسومات و المنحوتات هي رغبة الإنسان الأول في التجميل والتزيين أو ما يمكن تسميته بالديكور كي يجعل من بيته متحفا و مرتعا للراحة و باعثا للمتعة و السرور، بعد قضاء يوم شاق في المصارعة مع غريزتي البقاء و الفناء.

و ما كاد التأمل الفني و الحس الجمالي يزداد عند الإنسان البدائي حتى راح يربط بين تلك الرموز التي ينحتها و بعض الأصوات التي كان يصدرها اعتباطا أو يسمعها في أركان الطبيعة، لتتبلور معه مسألة (**اللفظ**)، التي خففت عنه وطأة الصمت الذي كان يعاني من رهبته منذ زمن طويل، و ثقل المعاني التي كانت تراود ذهنه و يعجز عن التعبير عنها، فبدأ في رحلة البحث عن الألفاظ، تارة يستمدها من أصوات الطبيعة مقلدا إياها، و تارة يتواضع عليها مع جماعة من الناس مثله لتسهل عليهم عملية التواصل فيما بينهم، و هنا بدأت معالم الحضارة الراقية بالظهور، و كذا معالم المجتمع المؤسس الذي يمسك زمام الفرد و يشجعه على المضي قدما في مضمار الفكر الإنساني.

بدأ الإدراك الإنساني ينضج شيئا فشيئا، لتتبلور قضية (**اللفظ و المعنى**)، و لما كثرت الألفاظ و المعاني، التفت الإنسان الفنان إلى مسألة "الجمال و القبح" في الألفاظ، و اعتبر أن قمة التعبير و روعته تكمن في جمال (**اللفظ و المعنى**) معا في إطار من الاتساق و الانسجام، و بهذا بدأ يمارس درس "البلاغة" و "النقد الفني و اللغوي" دون شعور منه بذلك، لقد بدأ يمارس تذوقه الفني في إطار من الإبداع البلاغي و التقويم النقدي، و راح يترصد مكامن الحسن و الجمال في تخير لفظ دون آخر للتعبير عن معنى معين يجول في خاطره موظفا فيه حسه الموسيقي من خلال جرس الألفاظ، و حسه البصري في تجسيم المعاني و تشخيصها، ليبدع للإنسانية أنواعا مختلفة من الأعمال الفنية البديعة، و ما أروعها من بدع تهدي العقول الضالة مفاتيح الجمال ليهتدوا بها، وتهدي لأصحابها إكسير الحياة الذي يجعلهم يعيشون حياتهم فنا وفق نظام ثلاثي الأبعاد، و يكون مع تقادم العصور و الأزمنة "**التاريخ**" الذي يستودع البصمة الفنية الأثرية للإنسان الأول الموسومة بسمة "الخلود الفني" التي تشد حولها أنظار جمهور المتلقين الذين تزيدهم روعة الفن الأصيل دهشة و إعجابا مع تكرار المعاينة.

وعلى ضوء ما سبق نطرح الإشكالية التي تأسس عليها البحث، فيم تكمن ما هية الجماليات في عالم اللغة والأدب خاصة؟ وفيم تتجلى أهم تمظهراتها وانعكاساتها الظاهرة والخفية في عالم الفن عموما؟

2. ماهية الجمال عند العرب وعند الغربيين:

إن "**الجمال**" هو حكم قيمي نسبي، قد يطلق على أمر دون آخر تفضيلا له و إعجابا بمميزاته الفنية المذهلة التي ما تكاد تعجب الذائقة الفنية للمتلقي حتى تملؤه بالأسئلة، كل هذا لأنها باختصار مذهلة حسب وجهة نظر المُعجَب بها ذلك أن "**الجمال**" هو(إدراك للعلاقات المريحة التي يستجيب لها الإنسان في شتى العناصر سواءً أكانت متوفرة في الطبيعة، أي من صنع الخالق الأعظم، أو كان الإنسان الفنان هو الذي صاغها في قوالب مختلفة من الفن التشكيلي و العمارة و الموسيقى و الشعر و الرقص و الغناء والقصة و المسرحية.)[1]

و مما لاشك فيه أن ما يجعل الجميل . الطبيعي والمصنوع . جميلاً هو حيازته لمجموعة من الخصائص التي يكاد يجمع الذوق الفني على جماليتها و تفردها رغم تعدد الأذواق و اختلافها.

إن البحث في موضوع "**الجمال**" و "**الحُسْن**" هو أقدم من اسم العلم كمصطلح "**علم الجمال**"، ذلك أن وجود "**الجميل**" مقرون بوجود الذات الإنسانية لا محالة، وعلى الرغم من أن الرجل العربي الأصيل لم يعرف مصطلح "**الجمال**" كمصطلح فلسفي مُقنَّن، إلا أن فطرته و ذوقه الرفيع و صفاء قريحته التي تكاد تريه الحقيقة في أصفى تجلياتها و معانيها، كوّنت لديه ذوقاً يميز من خلاله بين "**الجيد و الرديء**" و بين "**الحسن والقبيح**"، و بين كثيرٍ من الأمور التي يصعب حصرها و تعدادها، فتراه يفصل فيها و لا يتغافل عن الفروق البسيطة المميزة بينها، بل و يجعل لها ألفاظا خاصة تدل عليها ففي باب "**الجيد**" يقول: (مطرٌ جودٌ، فرسٌ جوادٌ، درهمٌ جيدٌ، ثوبٌ فاخرٌ، متاعٌ نفيسٌ، غلامٌ فارهٌ، سيفٌ جُرازٌ،(...)، و في باب "**الرديء**" يقول: فُشارةُ الناس، خُشاشُ الطير، نُفايةُ الدِّرهمِ، قُشامةُ الطَّعامِ، حُثالةُ المائدةِ،(...)، و في باب "**الحُسْنِ**" يقول: الصَّباحةُ في الوجهِ، الوضاءةُ في البشرةِ، الجمالُ في الأنف، الحلاوةُ في العينينِ،(...)، و في باب "**القبح**" يقول: وجه ذميمٌ، خُلُقٌ شتيمٌ، كلمةٌ عوراءٌ، فِعلةٌ شَنعاءُ.)[2]

و مما تجدر الإشارة إليه أن الإغريق لم يعرفوا مصطلح "**علم الجمال**" كمصطلح فلسفي فني و إن برعوا في مجال الفنون التطبيقية كالنّحتِ و الموسيقى و الرّسم، و لعل هذا ما يؤكد العلاقة الوطيدة التي تقرن الوجود الإنساني بالوجود الفني و كأن الأمر حتمية تاريخية لابد للإنسانية أن تدركها في أوج حضارتها، باعتبار أن "**الفنون**" هي ضرورةٌ حتميّةٌ و تيمة "**الجمال**" أو "**التجميل الفني**" هو مطلبٌ شرعي للحضارة عند ارتقائها، (و يبدو أن المصطلحات الفنية الخاصة بالأدب، و بكل قضاياه أو أغلبها، لم توضع إلا بعد اتصالٍ ب:"**أرسطو**"، و كان ذلك بعد أن أُرسِيَت نهائيا قواعد الحضارة الإسلامية مع بدايات القرن الثالث الهجري، و هنا يتكشف لنا أن الإغريق لم يُعنوُا بالجمال كمصطلح، و إنما عرفوه حين عرفوا كلاً من الحق و الخير.)[3]

و لعل الحديث عن مسألة "**الذوق الرفيع**" لدى العربي في العصر الجاهلي يبدو اعتباطيا أو مدحاً في فراغ أو استحساناً في غير محله، إلا أن الأمر أكثر جِدّيةً مما قد

يعتقد لأول وهلة ، و في هذا الصدد لابأس أن نتطرق إلى مسألة تعريف "**الذوق الفني**" الذي عرّفه الكثير من النقاد الفنيين و الباحثين في مجال الفنون الإنسانية، و لعل من بين أهم التعريفات هو الآتي: (الذوق الفني هو مَلَكَةُ الإحساس بالجمال و التمييز بين محاسن العمل الفني و مثالبه، و هو الاستعداد الفطري الذي يُهيِّئُ صاحبه لإدراك ما في الكلام من جمالٍ، و لهذا الجمال من أسرارٍ)[4]، و يعتبر "**الذوق**" الآلية التي تستهجن "**القبح**" و تسعى إلى تجميله ليضمن الراحة و المتعة لمتلقيه، و كأن "**الذوق**" حركة ديناميكية للتأثر و التأثير بمواقف الحياة المختلفة بحثاً عن الجمال و نفوراً من القُبح، (و من البديهي أن الفن يعطينا مفاتيح الجمال و القُبح، و التوافق و النَّشازِ،(...)، ولذلك فإن الذوق في عمومه يعني تطبيق مبادئ الفن، لا في إنتاج أعمال فنية فحسب، و لكن في تنظيم الحياة نفسها، فالفن يكشف القواعد و الأسس أو المعايير التي يبنى عليها الجمال(...) و لذلك فإن الفنانين على اختلاف أشكالهم ما هم إلا قادة الذوق، و أداة تطوره، و بدونهم يخلط الأمر و يقل الوعي به و تزداد فوضى الأشياء تراكماً)،[5] و لعل هذه المميزات التي يتمتع بها "**الفن**" في شتى أشكاله هو ما طبع أصحابه بطابع القداسة والتأله في كثير من القبائل البدائية ليكون "**الفن**" هو الوجه الآخر لمفهوم "**الديانة**" عند الإنسان الأول، و هذا ما ظهر جليا في توظيف الكهنة . باعتبارهم رجال دين . للأشعار والموسيقى في ممارساتهم الأسطورية العقائدية.

1.2 ماهية الجماليات عند العرب:

و مما يجدر الإشارة إليه هو أن وراء كل ذوقٍ رفيع "**ثقافةٌ راقية**" تكون له بمثابة الدعامة الأساسية في بنائه الفني عبر الحضارات المتعاقبة، و لاشك أن العربي قديما قد استمد أصول ذوقه الرفيع من "**حضارة عربية أصيلةٍ**" تضربُ بجذورها في عمق التاريخ، و قد (ساعدت الأبحاث المتأخرة بما يكاد يبلغ حد اليقين أن جنوب الجزيرة العربية، بآلهتها وبخورها، و هياكلها و كتاباتها و قلاعها و حصونها، كانت بلا شك في حالة ازدهار قبل بداية الألف الأول قبل الميلاد، تشهد على عظمة هذه المدنيات آثارها نفسها، فضلا عن الكتابات المسمارية و الآشورية البابلية و أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، و ما تركه الكُتَّابُ الأقدمون، و في الوقت الذي نسلِّم فيه بالتأثير الشامل للحضارة البابلية الآشورية، علينا أن نُقِرَّ مذعنين كذلك بأن جزيرة العرب نفسها لعبت دوراً ذا شأن في

إكمال هذه الحضارة،(...)، و في إبان حكم قريش لمكة، صار سوقها "سوق عكاظ" وكعبتها شيئاً أشبه بمراكز الاجتماعات الشعبية للبقاع المجاورة، قصرت عن منافستها فيها شهرة اليمن القديمة و حضارة غسَّان اللامعة، فأضاءت مركز الفنون القومية.)[6]

و في هذا الصدد، لا بأس من الإشارة إلى أن العربي . قديماً . قد تفطن إلى مسألة جمالية و قبح اللفظ في حد ذاته، فقد كان يستسيغ لفظاً معيناً دون مرادفه، لالتماسه في الأول جمالاً لا يجده في الثاني، و مردُّ ذلك إلى أنّ (هذا من الأمور المحسوسة التي شاهِدُهاَ من نفسها، لأن الألفاظ داخلةٌ في حيّزِ الأصوات، فالذي يستلِذُّهُ السمع منها ويميل إليه هو الحَسَنُ، و الذي يكرهه وينفُرٌ عنه هو القبيحُ، ألا ترى أن السمع يستلذُ صوت البلبل من الطير صوت الشّحرور و يميل إليهما، و يكره صوت الغراب وينفر منه،(...)، و الألفاظ جاريةٌ هذا المجرى، فإنه لا خلاف في أن لفظة "المُزْنة" و "الدِّيمة" حسنةٌ يستلذها السّمع، و أن لفظة "البُعاَق" قبيحةٌ يكرهها السمع، و هذه اللفظات الثلاث من صفات "المطر" وهي تدل على معنى واحد.)[7]

و إذا كان "**الجانب الصوتي السمعي**" هو الحَكَمُ الذي تستند إليه الذائقة الفنية في تَخيُّر الكلمات الجميلة و توظيفها في المعجم اللغوي الذي يُقصي من صفحاته القبيح المستثقل من الألفاظ، فإن هذا لا ينفي أن تكون هنالك جوانب أخرى تعتمد عليها الذائقة الفنية في تخيُّر الجميل من الأشياء عامةً، و هذا ما يجعلنا نتساءل عن سبب اختلاف الناس أو النقاد في إدراك "**الجمال**"، هل الأمر متعلق باختلاف المدارك الحسية أم باختلاف المدارك العقلية لدى الناس، أم أن ذلك يرجع إلى الحالة النفسية للمتلقين؟

رغم أننا نُسلِّم بفكرة أن الجهاز العصبي المستقبل للمدارك الحسية لدى البشر مختلف التركيب من شخص إلى آخر، إلا أن هذا الأمر ليس السبب الرئيس في اختلاف الناس في إدراك الجميل، ذلك أن (الإختلاف بينهم في المزاج و التربية و العادات كبير، كما أنَّ الناس مختلفون في درجة الرقي العقلي، و ليست الحواس وحدها تستطيع أن تدرك الحركات و الأشكال و الأصوات و الألوان على انفرادها، و لكن لابد معها من الفكر والشعور ليربطا بعضها ببعض، و يُكوّنا منها مجموعة واحدة متناسقة الأجزاء.)[8]

إن "**الجانب الاجتماعي و الحضاري**" لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية هو مسألة في غاية الأهمية لإدراك الجمال و تذوق الفنون الإنسانية، ذلك أن الجانب الفني هو واحد من أهم مستلزمات "**الحضارة**" في كل المجتمعات الإنسانية باعتباره دليلا على الترف الفكري الذي وصلت إليه هذه الحضارات بعد أن استوفت شروط الحضارة بكل معانيها، من ارتقاء عمراني و اكتفاء اقتصادي و تطور فكري، يكلل كل هذا بتفوق فني ملحوظ يشهد عليه تاريخ البشرية من خلال الآثار الفنية التي تترك بصمتها الخالدة في المتاحف و دواوين الأشعار و اللوحات الفنية و المنحوتات الرائعة.

و يعتبر "**الجانب النفسي**" للمتلقي أمراً ضروريا تستند إليه الذائقة الفنية في إدراك "**الجمال**"، ذلك أن الحالة النفسية الإيجابية تنعكس جمالا و حُسْنا على الأشياء، في حين أن الحالة النفسية السلبية تنعكس قُبْحاً على الأشياء، باعتبار أن الذات الإنسانية تلقي بظلالها على الأشياء دون أي اعتبار للحقيقة الجمالية ، لذا فإن بعض النقاد يرى أن "**الجمال**" هو: (علم أفراح النفس و أحزانها.)[9]

فكل ما تميل إليه النفس هو مُحبَّبٌ جميل، و كلُّ ما تنفر منه منبوذٌ قبيح، و كأن "**النّفس**" هي الحَكَم الذي تستند إليه الذائقة الفنية مذعنةً إلى كل أحكامها، و إن جارت أحيانا، لذا فان الجانب النفسي هو واحد من أهم الجوانب التي تتسبب في اختلاف أذواق الناس و اختلاف أحكامهم الجمالية الفنية.

و قد يرجع اختلاف المدارك الجمالية و تعدد الأذواق إلى "**الجانب السياسي**" لأي مجتمع من المجتمعات التي يعتمد حُكامها على ظلم الرعية و تكبيل حرياتهم و فرض الهيمنة وكل آليات الظلم و الاستبداد عليهم، مما يجعل هذه الظروف تساهم في ميلاد فن مقاوم للظلم باحث عن فردوسه المفقود الذي ينشد فيه الحرية المنتهبة، هنا تصبح الحرية رمزا للجمال المفقود و يصبح "**الفنُ**" الناطقَ الرسمي لهذه الحرية المقيدة، ذلك أن مسألة "**الجمال**" (ليست مسألة درجة أو شكل محدود، و لكنها مسألة دلالة معنوية لا تُقَدّر بالدرجات و الحدود،(...)، و فكرة الجمال في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون، فلا فن بغير تطلع و لا تطلع بغير حرية، و لكن ينبغي أنْ نذكر أنَّ "**الحرية**" تستلزم المنع و أنَّ "**الجمال**" هو غلبة الحرية على القيود أو هو ظهور الحرية بين

الضرورات، و ليس هو بالحرية الفوضى التي لا يمازجها نظام و لا يحيط بها قانون، فلا عجب أن يمثل "**الفن**" قيود الجمال و أنظمته كما يمثل حريته و انطلاقه.)[10]

و عليه، فإن "الفنون" بكل أشكالها هي رمز من رموز الحرية المضطهدة في تاريخ البشرية، فمثلما أبدع الإنسان الفنان في زمن ارتفاع شأو الحضارة، كذلك أبدع الإنسان الفنان عندما مورست ضده كل أنواع الحرمان من منعٍ و كبتٍ و تقييدٍ للحريات، و من هنا فإن "**الفن**" هو العملة التي تحمل وجهي الحضارة من رقي و انحطاط.

و نظراً لتعدد الجوانب التي تحكم زمام الحقيقة الجمالية و ظلالها الفنية على الذات الإنسانية، فإن الأمر يرجع إلى كون مسألة الجمال مسألة إنسانية نسبية الأحكام يصعب إيجاد سبب واحد لها أو حصر كل الأسباب المتحكمة فيها عند كافة البشر، لذا فإنَّ من الباحثين من يُرجّح (أنْ لا **جمال** مطلق، كما أن **القبح** إنما هو للاعتبار لا لنفس ذلك الشيء، فلا يوجد في العالم قبحٌ إلا باعتبار، فارتفع حكم القبح المطلق من الوجود، فلم يبق إلا الحسن المطلق،(...)، فعُلمَ بهذه المقدمات أن الوجود بكماله صورة حسنة يدخل فيها المحسوس و المعقول و الموهوم و الخيال، و الأول و الآخر و الظاهر والباطن، والقول و الفعل و الصورة و المعنى، فإن جميع ذلك صور جماله و تجلّياتُ كماله.)[11]

إنَّ من يعتبر أن كل المخلوقات جميلة لا قُبْح فيها يستند إلى الجانب الديني العقائدي، محاولاً بذلك مسك زمام "**الجمال**" في المخلوقات، لا يدرك أنَّ الأمر قد يختلف إذا تعلق بالأعمال الفنية التي أبدعها البشر، لِمَا قد يعتورها من نقصٍ أو خطأٍ يحيد بها عن معالم الجمال و الحُسن، لذا و إن ارتفع حكم "**القبح المطلق**" عن المخلوقات الإلهية، إلا أنَّه يبقى الطرف المقابل للجمال في الحكم على الإبداعات الفنية للذات الإنسانية.

و لعل هذا الطرح قد يعارض الطرح الذي تناوله "**محمد نجيب زكي**" حين قال: (إن الجمال في الفن و في الطبيعة على السواء، يستقي قيمته كلها من كونها وسيلة تبرز الروح الإلهي في جوهرها و صميمها، فترى هذا الروح مشعا خلال القطعة الفنية، أو خلال المنظر الطبيعي،(...)، و لو كان الأمرُ أمرَ تناسبٍ في الأجزاء الظاهرة من الجسد أو المادة المستخدمة في البناء الفني، لكان الوجه الجميلُ جميلاً و هو حيٌّ كما هو جميلٌ وهو مَيْتٌ، لكن لا، إنَّ العبرة كلها هي بما وراء السطح الظاهر من روح و معنى.)[12]

لعل مسألة "**الروح**" التي تبعث الحياة و الحيوية في الجماد و الأشياء هي واحد من الجوانب التي تضمن جمالية الأشياء بِغَضِّ النظر عن الشكل الخارجي لها، ذلك أن "**الروح**" هي التي تلقي بظلالها على الأشكال و الكتل المادية لتبعث فيها نورا جماليا يساهم في تمييز "**الجميل**" عن "**القبيح**" من خلال ثنائية "**الحياة**" و "**الموت**"، فكل حيٍّ ذي روح هو جميل، و كل ما تنعدم فيه الروح فهو قبيح، و لعل هذا الطرح و إن اعتُبر فرضيةً من فرضيات التأويل الجمالي، إلا أنه يفتقر إلى الأدلة المدعّمة له باعتبار أن مسألة "**الروح**" مسألةٌ غامضةٌ يصعب المسك بزمامها.

و يُرجع بعض النقاد مسألة "القبح" في الوجود بكونها لمسة إنسانية بجدارة، ذلك أن كل مخلوقات الله جميلةٌ لولا تدخُّل الذات الإنسانية في تشويهها من خلال تمرُّدها على أنظمة الكون و أسسه، (و من هذا فليس في الكون إلا الحب و الجمال و الخير إذا سقطت الرغبات، إذ كل شيءٍ حينئذ يكون مقصورا على حقيقته التي لم نُفسدها بتغييرها، و لأن قُبح شيءٍ من الأشياء إنما هو صورةُ انحرافنا عن إدراكٍ لا حقيقة، وجهلُنا بناحية اندماجه في قانون الاتساق الإلهي[13]،هكذا تعددت الرؤى حول حقيقة تعدد الأذواق في الحكم على "**الجماليات**" في كل تجلياتها الطبيعية و الفنية، إلا أن الحقيقة الجمالية تبقى ثابتةً رغم تعدد الطرق الموصلة إليها، سواءً أكانت النفس البشرية أو ضرورات الحضارة و المجتمعات الإنسانية أو ما يكتنف هذه المجتمعات من تقييد للحريات أو كانت الروح مصدرا لها.

2.2 ما هية الجماليات عند الغربيين:

أما بالنسبة للغربيين، فإن "**علم الجمال**" ينتمي إلى الفنون الجميلة، حيث إن هذه الأخيرة كانت متعايشةً مع بعضها في عصر النهضة دون تمايز أو فصل، مجتمعةً في إطار موحَّد يزيد من ثرائها الجمالي الفني، (ففي خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر، ظهرت محاولات متعددة للجمع بين "**الفنون**" و "**العلوم**" على أساس مبدأ أو مبادئ متعددة، و في أواخر القرن السابع عشر أصبح التمييز بين "**العلوم**" و "**الفنون**" من الأمور الواضحة، و لقد ظهر في "إيطاليا" خلال القرن السادس عشر مصطلح جامع هو: "**فنون التصميم**"، كذلك ظهر مصطلح "**الفنون الجميلة**" في "فرنسا" إبان القرن السابع عشر، وكان هذان المصطلحان يَعْنيان الفنون مثل: التصوير و النحت و العمارة،

و مع ذلك كان يضم إليهما . في بعض الأحيان . الشعر و الموسيقى، و حينما حل القرن الثامن عشر جرت العادة على التفكير في فنون المحاكاة أو التصوير المثالي على أنها مجموعة مترابطة، و بدأ مصطلح "**الفنون الجميلة**" يتَّخذ معناه الذي أصبح شائعا خلال القرنين التاسع عشر و العشرين.)[14]

و من الكتب التي انطوت على أول إيضاح للمفهوم الجديد لمصطلح "**الفنون الجميلة**" الذي يعتمد على توحيد النظرة إلى كل الفنون باعتبارها مجموعة من ثمرات الإبداع الإنساني المترابطة هو كتاب "الفنون الجميلة على أساس مبدأ واحد" للكاتب الفرنسي "**شارل باتو**" **Charles bateaux** الذي ألَّفه سنة 1746 ميلادي، معتبراً أن المبدأ الذي يؤلّف بين الفنون الإنسانية هو محاكاة الطبيعة الجميلة، و قد تضمَّنت هذه الدراسة فنون الموسيقى و الشعر و التصوير و النحت و الرقص.

و الملاحظ أنَّ هذه النظرية الفنية قد انعكست على الجانب التطبيقي في مجال الفنون الإنسانية آنذاك فصارت الفنون تستعير أو تستوحي من بعضها بعض آلياتها أو موضوعاتها.

لقد صار (الشعر يستنزل الوحي أحيانا من الرسم أو النحت أو الموسيقى، و قد تغدو الأعمال الفنية الأخرى موضوعات للشعر،(...)، و يقال أن "**سبنسر**"* **spencer** استلهم بعض قصائده الوصفية من القماش المزين و المواكب، و قد أثَّرت رسوم "**كلود لورين**" **Claude lorrain** و "**سلفادور روزا**" **Salvator rosa** في شعر الطبيعة الذي نُظِم في القرن الثامن عشر.[15]

وهكذا كانت البداية المصطلحية للفنون الجميلة التي لم تتبلور إلى فلسفة منهجية إلا في سنة 1750 على يد الفيلسوف الألماني "**ألكسندر فون باومجارتن**" **Alexander Von Baumgarten** الذي (اتخذ كلمة "**إستيتيقا**" **Esthétique** اسماً لها، فأصبح هذا الإسم علماً على فلسفة الجمال بعد "**باومجارتن**" و كان صدور كتاب هذا الفيلسوف سنة 1750.)[16]

3.مفاهيم جمالية فنية متفرقة:

1.3 الجمال علم أم فن؟

من الأسئلة التي تطرح نفسها في ذات السياق، مسألة التفريق بين "**علم الجمال**" و "**فن الجمال**"، و هذا ممَّا يدعو إلى تبيان الفرق بينهما بغية إزالة الغموض الذي يعتري هذين المصطلحين، ذلك أن لفظ ("**العلم**" يُطلق على القضايا المنظمة المبوبة، و أما "**الفن**" فيُطلق على استعمال العلم في أغراض عملية، فيلاحظ في **العلم** الجانب النظري و في **الفن** الجانب العملي، فما وراء الطبيعة علمٌ لا فن، و الخطُّ فن، وقد يجتمع في الشيء الواحد علمٌ و فن، فنظريات الموسيقى و مسائله مبوّبةً "علم الموسيقى"، و أما مباشرة التوقيع على الآلات الموسيقية ففن.)[17]

و بهذا المعنى نستنتج أن "**الجمال**" في مسائله الفلسفية و النظرية علم، أما حين يدخل مجال الممارسة و التفعيل كالرسم و كتابة الشعر و الرواية و غيرهم يصبح فنا.

و مما يجدر الإشارة إليه أن بعض المفكرين و النقاد يرون أن مسألة "**الجمال**" تُعارض مسألة "**العلم**" الذي قد لا تتفق معه في أي جانب من جوانبها الفنية، ذلك أن (للجمال طبيعةٌ تتنافى مع طبيعة العلم، إذ "الرائع" كما تراه هذه الفئة يُتَذَوّق دون أن يُشْرَح أو يُدْرَس لأنَّ الكلامَ المُفصَّل في شرح أجزاء الجمال عملٌ يزيل الجمال و يمحوه، فالعمل الفني كما تراه هذه الفئة هو بمثابة إدراك مباشر، فإما أن نتذوقه و إما أن لا نتذوقه.)[18]

في حين أن هنالك من يجد تلازما بين كلمة "**فن**" و كلمة "**جمال**"، (فالجمال هو الفن بالقوة، أي قبل أن يُعبَّر عنه، و الفن هو الجمال بعد أن عُبِّر عنه بالفعل.)[19]

و لو أن الحقيقة العلمية هي الحقيقة النهائية الكلية، لما كان هناك مُبرّر أو حتمية لوجود الفن، و إنما وُجد الفن للتعبير عن الوجود الآخر الذي لا يُقره العلم لأنه أنأى من منطقه و أعمق من نُظمه.

و من خلال ما سبق، نستشف أن "**الجمال**" هو حقيقة إدراكية موجودة لا مجال للأذواق البشرية في نفي وجودها . و إن اختلفت . فمهما تعددت طرق الوصول إليها إلا أن الحقيقة المنشودة واحدة، و لكن الأهم و الأجمل في مسألة "**الجمال**" هو جمال التعبير عن "**الجميل**"، هنا فقط تتجلى و تتعدد **أسلوبيات الجمال** المُعبّرة عنه، لتفتح الأبواب واسعة أمام جماليات متعددة للأسلوب في إطار حلقة جدلية لامتناهية بين

جمال ينتج أسلوبا جماليا و أسلوب جميل منتج لجمال أجمل من سابقه، وهكذا دواليك.

ليس "**الجمال**" الموجود في الطبيعة هو ما يهم أصحاب الفلسفة الجمالية، إنما يهمهم "**الجمال**" عندما ينتقل إلى عمل فنان، أو عبارة أدق عندما يسقط عليه الجمال الذاتي (فقد تكون حقيقة من حقائق الطبيعة قبيحةً أو غير جميلة، و لكنها تستحيل جميلةً عند الفنان بما أسبغ عليها من ذاته.)[20]

3. 2. "الجمال" بين الطبيعة و الفن:

في سياق الحديث عن "**الجمال الطبيعي**" و عن "**الجمال الفني**"، لا بأس أن نشير إلى أهمية "**الطبيعة**" باعتبارها مصدرا إلهاميا للجمال لدى الفنان، ذلك أن "الطبيعة" هي قمة الإعجاز الفني حيث تُعتبر اللمسة الإلهية فيها ماركة مسجلة غير قابلة للتقليد التام، و تكمن قمة الروعة والجمال و الإعجاز في أنها تحدٍ إلهي على عجز الإنسان أن يأتي بمثلها، و ما عليه إلا الإذعان لخالقها و تسبيحه و التأمل فيها، و هذا ما لا يدركه إلا الإنسان الفنان الذي يدرك ببصيرته الفنية ما لا يدركه الإنسان العادي، ولهذا يقول "**محمد البسيوني**": (يجب أن نشكر الفنانين للصور التي لدينا عن الطبيعة، فنحن ندركها من خلال أعينهم،(...)، وكل الفنون ترجمت الطبيعة منذ أن استطاع الإنسان التخطيط في الكهوف حتى وقتنا هذا، وأساس هذه الترجمة التفاعلُ المستمر بين الفنان و الطبيعة، و لكن هذا التفاعل كان يتمُّ من خلال حاجات الفنان المتطورة، ولذلك كانت حصيلة هذه الترجمة إما رمزيةً أو واقعيةً أو تجريديةً أو رومنسيةً أو تعبيريةً.)[21]

و في هذا الصدد، لابد من الإشارة إلى أن المعنى التقليدي لمصطلح "**علم الجمال**" كان يشير عند "**الغربيين**" إلى دراسة "**الجمال**" في الفن و الطبيعة، أما الاستعمال الحديث فينطوي على أكثر من ذلك بكثير، باعتباره (علما بيْنِيّاً .**interdiciplinair**. تقوم من خلاله فروع معرفية عدة تدرس الإستجابة الجمالية بكل ما تشتمل عليه من جوانب حسية وإدراكية و انفعالية و معرفية و اجتماعية.)[1] ، و بذلك تعددت "**الجمالية الواحدة**" إلى "**جماليات متعددة**"، نُعدد بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر: الجماليات البيئية، وجماليات الصورة التلفزيونية، وجماليات التسويق، وجماليات

العوام، غير أن ما يُعاب على الجماليات الحديثة أنها تخلو من القيمة المضافة في الجانب التطبيقي، مما زاد في ركاكة الفنون و إفراغها من القيم الجمالية القديمة، نظرا لكون المتلقي قد أصبح علامة من علامات التسويق حيث ينحصر همُّه في الإستهلاك دون التذوق للأعمال الفنية، و هذا ما يدعو إلى إحياء روح التراث بغية استجلاء جمالياته المتفردة و تذوق عبق الماضي الأصيل و دراسة العوامل المنتجة لهذه الجماليات الخالدة بغية إعادة إحيائها و كذا استثمار آليات نشأتها في إنتاجية جديدة لجماليات أكثر حداثة من سابقاتها، لتحمل بصمة اليوم لأجيال الغد المشرق.

خاتمة:

و على ضوء ما سبق، فإنَّ "**الجمال**" هو لغةٌ عالميةٌ تتواصل من خلالها البشرية جمعاء، فإن سرت روح الجمال في النَّاي صار لحناً تستصيغُه الآذان، و إن سرت روح الجمال في الألوان و الأشكال صارت روضةً للناظرين، و لقد تجتمع كل هذه المحاسن الحسية من بصريةٍ و سمعية و غيرهما في عالم "**البيان**"، ذلك أنَّ الشعر هو مستجمع الجمال الفني لِما يحتويه من جمال موسيقي يتجلَّى في بحوره و تفعيلاته، و جمالٍ تصويري يتجلَّى في صُوره البلاغية التي تُشخِّص الصُّور و المواقع أمام الأنظار بما تُلقيه من ظلالٍ فنية تجسيمية على مُخيلة المتلقين، وغيرها من التفاصيل الدقيقة التي لا تبوح بأسرارها الفنية إلا لناقدٍ مُتمرِّس يُدرك جيّدا مكامن الدُّر في الأصداف و يتقن السِّباحة في أغوار الفن الأصيل.

الهوامش:

محمد البسيوني: تربية الذوق الجمالي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1986، ص16. 1

2 أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة، تحقيق: محمد الزهري، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1996، ص37، ص 39، ص40.

3أحمد كمال زكي: دراسات في النقد الأدبي، ط02، دار الأندلس، القاهرة، مصر، 1980، ص107.

الأحمر: الموسوعة الأدبية، ج01، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص311. 4

محمد البسيوني: تربية الذوق الجمالي، (المرجع السابق)، ص50. 5

6هنري جورج فارمر: تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن 13 ميلادي، ترجمة: فتح الله المحامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1928، ص32، ص39.

أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، ط01، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 2004، ص27. 7

ابسن رابوبرت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1969، ص56. 8
مصطفى صادق الرافعي: أوراق الورد، ط09، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1973، ص40. 9
عامر العقاد: آخر كلمات العقاد، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1965، ص55 ، ص60. 10
زكي نجيب محمود: هموم المثقفين، ط01، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1981، ص250. 11
المرجع السابق، ص254. 12
مصطفى صادق الرافعي: أوراق الورد، (المرجع السابق)، ص192، ص293. 13
محمد عبد السلام كفافي: في الأدب المقارن، ط01، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1971، ص71. 14
المرجع نفسه، ص36. 15
16فيصل الأحمر: دائرة معارف حداثية، ج01، دار الأوطان، الجزائر، 2009، ص405.
ابسن رابوبرت: مبادئ الفلسفة، (المرجع السابق)، ص27. 17
رياض عوض: مقدمات في فلسفة الفن، ط01، دار جروس برس، طرابلس، لبنان، 1994، ص27. 18
19بشير خلف: الفنون في حياتنا، ط01، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص51.
20شوقي ضيف: البحث الأدبي، ط06، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1986، ص118.
21محمد البسيوني: تربية الذوق الجمالي، (المرجع السابق)، ص95.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊